طرديات ابــي نــؤاس

م. م. رائدة مهدي جابر
كلية التربية الاساسية

المقدمـــــة

للشعر قيمة فنية كبيرة لأنه يكون حواراً مع النفس او مع الآخرين وهو بهذا يخلق ثنائية وحركة واضحة في العمل الأدبي تقربه من التعبير الدرامي الذي هو أعلى صورة من التعبير الأدبي ، والشاعر من خلال الشعر يقدم تجربة شاملة وعميقة توصله إلى ما يريد قوله وتبلغه أهدافه، لأن لهذا الغرض إمكانات عالية يمكن توظيفها توظيفاً فنياً في السياق .لهذا كله جاء هذا البحث ليدرس الطرديات وصورها في شعر العصر العباسي والشاعر (أبو نواس) انموذجا، وقد وقع اختياري على هذا الشاعر لسببين أولهما ان هذا الغرض من ضروريات الحياة مارسه الإنسان العربي طلبا للقوت او دفاعا عن النفس، وتردد صدى ذلك في شعر الكثير منهم من أمثال امرىء ألقيس وعبد الله بن الدمينة وغيرهم من الشعراء ، وثانيهما ان الشعراء في العصر العباسي كانوا أنفسهم يمارسونه ويعتنون بشأنه ويفتخرون ويحثون غيرهم على ممارسته، وأنّ هذا الشاعر(أبو نواس) أبدع في وصفه وابرز مواطن اللذة فيه.ونظم اكثر طردياته في كلبه وجوارحه ولم تقتصر على وصف الصيد بل كان له دوافع عديدة منها الممارسة الواقعية والمعانات الحقيقية لتحديد وقت الخروج للصيد والإطالة في وصفه ، وكان السبب الفاعل في هذه التغييرات هو ان يخلق جوا نفسيا يدفع إلى التجاوب السريع لهواية الشاعر وهذا ما يكسب القصيدة وحدة موضوعية. ويعد هذا البحث محاولة جادة ليتمكن القارئ من معرفة ان الشعر كان يخلو من المنطق والترتيب العقلي وانه كان وحدة فكرية ليس وحدة تأليف في اغلب الشعر الجاهلي، وانه قد انفصل هذا الغر ض عن أغراض القصيدة الأخرى واستقلاله عنها مكونا ما اصطلح عليه تسمية الطرديات حيث استقطب هذا الفن واستكمل على يد الشاعر أبي نواس .إن مثل هذه البحوث تعد انموذجا تطبيقياً للشعر العربي ، وارى أنها تقرب القصيدة إلى أذهان القراء وتجعل منها انموذجا عاليا للتصور وتبعد ما أتى به الطرد لدى شعراء ينساق أليهم الطرد استطرادا استجابة لدافع لأتمت إلى الطرد بصلات ، ومن الله التوفيق ..

ان الصيد والطرد من ضروريات الحياة، ولقد مارسه الانسان العربي منذ دهور سحيقة باحثا عن قوته او دفاعا عن نفسه اوناشدا المتعة اوالرياضة، ومن أقدم النصوص البشرية نجد لهذا الصراع بين الإنسان والحيوان فلقد عرضت ملحمة جلجامش لذكر الصياد وصيد الظباء وحمار الوحش ، كما ان التوراة قد اخبرتنا بأن نمرود وابنه كوش قد مارسا الصيد ومثلهما إسماعيل (ع)[1]1) . (فلصيد دوافع عديدة منها تحصيل القوت واعتباره وسيلة من وسائل ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله، او للدفاع عن النفس حيث كان الصيد حربا يراد به الطمأنينة ، او السعادة، او وسيلة للمتعة والرياضة)[2]2).وانه كان موضوعا يرد خلال القصيدة العربية ثم صار فنا قائما بذاته ،ولكي نتعرف على معالم هذا الفن لابد من تتبعه من خلال استخدام الشعراء الذين تعرضوا لوصفه، فعبد الله بن الدمينة حين يلمح ظبية أدماء ذات غزال ترعى في أعالي وادي ذي سدير في اليمامة يلفت نظره خفقان أحشائها وذلك لهربها من الصيادين فاستطاعت ان تمنع الرماة عنها وتعجزهم عن قنصها ،وفي تلك اللحظات يتذكر حبيبته ويفضلها على تلك الظبية:

وما مغزل ادماء خفاقة الحشا	طويل في أعالي ذي سدير مرودها
رماها رماة الناس حتى تمنعت	على كل رام منهم لا يصيدها
بأحسن منها يوم حال وشاحها	وأحسن منها يوم جالت عقودها[3]3)

فهو استخدم مشهد الظبية الطريدة جسرا لوصف حبيبته لا هدفا قائما بحد ذاته بل استخدم هذا المشهد ليصل الى تكوين الظروف التي تساعده على ابراز صفات محبوبته.

وهذا امرؤ القيس يعدد وجوه طرق لهوه فيضع الصيد والطرد على فرسه في المقدمة ثم يذكر مغامراته العاطفية اذا يقول:

كأني لم اركب جوادا للذة	ولم أنبطن كاعيا ذات خلخال
ولم اسبأ الترف الروي ولم اقل	لتحيلي كرى بعد إجفال[4]4)

---

[1] سفر التكوين: صـ72، بيروت 1962 (1)

[2] .الصيد والطرد: صـ14 (2)

[3] ،ديوان ابن الدمينة: تحقيق: احمد راتب النفاخ، صـ51، القاهرة ،1959 (3)

[4] شرح ديوان امرؤ القيس، حسن السندوبي، القاهرة ،1947،1،صـ143 (4)

وذلك ان الصيد لم يعتبر سبه في الشعر الجاهلي ولو كان كذلك لما لهج به امرىء القيس ويسره اكل لحمه ويعلن ذلك في شعره مع عراقته بالنسب والملك،اذ يقول:

تظل طهاة اللحم من بين منضج حفيف شواء او قدير معجل[5])

وهنالك ملاحظة جديرة الانتباه حيث يمكن ان نعدها خروجا عن مالوف الشعراء الجاهليين الذين جعلوا البيت وحدة مستقلة داخل القصيدة يتم به المعنى ولايحتاج الى غيره.

فالصيد والطرد في الشعر القديم لم يكن هدفا في حد ذاته وانما كان الشاعر يلجأ اليه استطرادا وهذا ما كان يفتقده الشعر القديم من حيث الوحدة الموضوعية. كان الشعراء قديماً يقصدون إلى وصف الحيوان الذي يطاردونه مثل حمار الوحش والثور الوحشي إلى غيره من الحيوانات الأخرى، كوسيلة يتسللون بها إلى إظهار قوة الناقة التي يركبونها او إظهار قوة الفرس التي يمتلكها حيث وصفوا مثلاً حمار الوحش رغبة منهم في إظهار سرعة فرسهم وقدرته على اللحاق بهذا الحيوان[6]).ولم يكن لهم قصائد قائمة بحد ذاتها حيث كان الشعراء يتخذونه كوسيلة يتذرعون بها في معرض افتخارهم بالفرس فقد صب اهتمامهم على وسيلة الصيد وهي الفرس ، وذلك لانه وصفهم لم يكن قائماً بحد ذاته بل كان سبيلاً يوصلهم الى هذا الوصف، هذا من ناحية الشعراء الذين يستخدمونه للفخر بالفرس.اما الشعراء الغزليون فقد استمدوا من عناصر الصيد بعض الصفات التي البسوها على من يتغزلون به من النساء فلم يلتفتوا إلى بقر الوحش مسرعاً نشيطاً بل وجدناهم فطنوا إلى سرعة عيون ألمها وجمالها حيث اسماها "عبد الله قيس" بالمهاة:

الا نما ليلى مهاة غريرة وسعدا في أترابها البيض ربرب[7])

ومع إطلالة العصر العباسي ظهرت خروق في قصائد الصيد والطرد حيث نرى شعراء هذا العصر أكثر من أولى اهتمام في شعر الطرد ومنهم الشاعر(أبو نؤاس)، اما باقي الشعراء قد انصرفوا إلى وصف جوارح وضواري الصيد بالذات ولم يهتموا كثيراً بالطرائد .

وهذه صورة للشاعر أبي نؤاس ، قد أولى وصف كلاب الصيد اهتماماً كبيراً فلم يستخدمها كوسيلة للفخر بفرسه او للغزل بمن يحب بل اعتبرها وسيلة مهمة من وسائل الصيد حيث نشاهد ان الطردية قد استقرت عن أبي نؤاس على موضوع الصيد والطرد وهذا نموذج من طرديات أبي نؤاس يصف بها كلبه الذي انطلق مع الصباح :

وقد اغتدى والصبح مشهور قد طلعت فيه التباشير
بمخطف الايلل في خطمه طول وفي شدقيه تأخير[8])

فان للطردية اغراض عدةّ ولم تقتصر على وصف الصيد فقط حيث تناولت اغراض عديدة منها تحديد وقت الخروج للصيد والإطالة في وصف وسيلة الصيد سواء كانت فهداً، او طيراً جارحاً ،اوالحوار مع القانص ،وهناك أمور أخرى ترافق عملية الصيد وهذا يخلق جواً نفسياً يدفع إلى التجاوب السريع والتفهم لهوية الشاعر ورغبته في الصيد وهذا ما يكسب القصيدة وحدة موضوعية .حيث نلاحظ ان شعر الصيد قد انفصل عن اغراض القصيدة الأخرى واستقلاله عنها مكوناً ما اصطلح عليه بالطرديات حيث استقطب هذا الفن واستكمل عناصره على يد الشاعر أبي نؤاس (فكأن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الأخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم عاهة تحول محاسنه وتعفى معالم جماله)[9]).ويستمر ابو نؤاس في عرض صوره الخيالية ، وليس ما نعنيه الخيال هنا مجرد التسمية لان ذلك سوف يدخل كل خيال حقيقي وساذج ضمن تسميتنا دون أي قصد وإنما نعني بها تلك العملية التي تنشئ صورا غير موجودة أصلا على ارض الواقع او القدرة الكامنة على تشكيلها[10]).فالخيال تشكيل سحري لا يقدر عليه الا الفنان المبدع، حيث نلاحظ الصورة التي رسمها أبو نواس لكلبه وهي صورة ليس لها وجود في واقع الحياة الطبيعية حيث يصوره وهو يمشي كالمتباهي بنفسه في مقود صاحبه، وعلى ان الظبي مكث في تل عال لينجو من ذلك الكلب لكن ظنه خاب حيث عندما أطلقه صاحبه بسرعة فائقة في الأرض الوعرة وإذا به ينقض على فريسته في أعالي الجبال، اذ يقول:

---

[5] . شرح المعلقات السبع،الزوزني،صـ43 ،القاهرة ،1948 (5)

[6] .الصيد والطرد ، صـ103 (5)

[7] .ديوان عبد الله قيس الرقيات ، تحقيق د. محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت،1958، صـ36 (6)

[8] . ديوانه : صـ 635 (7)

[9] .العمدة: ابن رشيق القيرواني : ج2 ، ط2 ، القاهرة ، 1955 ، صـ117 (8)

[10] . معجم مصطلحات الأدب: مجدي وهبه ، صـ166 .وينظر:في النقد الادبي الحديث :د. فائق مصطفى عبد الرضا علي،صـ 37 ،دار الكتب للطباعة والنشر ،1989 (9)

يجول في المقود كالمختال وانس هجنا به فهاج لنزال
الظبي بتل عال فأنسل قلبي ساعة الإرسال
ومر يتلوه ولم يبال وبالحزن والسهل وبالرمال
فصاده في أصعب الجبال وقائل لي وهو عن حيالي
أكرم بهذا الكلب من محتال! أتيح حتف الظبي والاوعال(10)

ويتعمق الشاعر في ارض الخيال فيصور لنا كلبه متشوقا للصيد وكأنه شيطان يهجم على أسراب الظباء حتى نشاهده وهي تتفرق وتتطاير فارة منه كالشظايا:

أعددت كلبا للطراد فظا إذا غدا من نهم تلظى
وجاذب المقود واستبلظا كأن شيطانا له ألظا
يلظ أسراب الظباء كظا حتى تراها فرقا تشظى[11]11)

وله طردية (وقائع الكراكي) ذلك ألباز لون ريشه مائل إلى البياض وان باطن أجفانه مكحلة من شدة سواد عينيه وله جؤجؤ صلب كالحجر ، فنراه يثني عليه وكأنه شخص يقف امامه ويحاوره:

أطريك يا بازينا واطري مرتجلا وفي صبير الشعر
أقمر من ضرب بزاة قمر يصقل مملاقا شديد الطحر
كأنه مكتحل بشير في هامة لمت كلم الفهر
مكتحل بشبر واطري وجؤجؤ كالحجر القهقر[12]12)

ويرسم لنا طردية أخرى بعنون (صقر) بريشة فنان متأمل التي انتزعها من الصقر الذي انقضى على الإبل التي أصابها الظمأ:

قد أغتدي قبل مزاد الخامس بضرم كف اللامس
بجلدة تندى وحجم يابس عليه من منضوحه القلانس
فنفاء ذات عذب نوايس يهوع فوها كهؤاع القالس[13]13)

ويهوي صقره من أعالي السماء على قطيع من الإبل حيث تفاجأ بهذا الطائر الخارق وتستسلم إلى المصير المحتوم:

والسرب بين خارق و وائل كأنه حيث سما كالحائل
جندلة تهوي إلى جنادل يدوين بين دنف مناقل
بين مفرى القرا خرادل كأنه في جلده الرعابل

لابس فرو ناس الذلاذل

نلاحظ ان الصور التي يرسمها ابو نواس لطردياته هي صور ليس لها وجود في واقع الحياة الطبيعية ، حيث يصف الفرس ويبكر به مع الصباح كذلك والليل بهيم كالحبشي الذي خلع ملابسه وكان طويلا كريم النسب:

قد اغتدي والليل في اهابه ادعج ما جرد من خضابه
مدثر لم يبد من حجابه كالحبش انسل من ثيابه

[11] .ديوانه: صـ646 (10)
[12] .المصدر نفسه: صـ641 (11)
[13] .المصدر نفسه: 658 (12)

بهيكل قويل من انسابه مرد الاعوج في اصلابه [14]14)
حيث ان هذه الصورة التي رسمها (ابو نواس) لفرسه يعتمد على التشبيه كي يرسم الصورة الخيالية التي يصف بها وسيلة الصيد التي يستخدمها .
ويكثر (ابو نواس) من التشبيهات لعله يفلح في احضار صورة فرسه وتقريرها في مخيلة السامع باسلوب حاذى به شعراء الجاهلية، اذ يقول:

قلنا له عزه من اسلابه فلاح كالحاجب من سحابه
او كالصيع اسئل من قرابه فسدد الطرق وماهاها به
فابضاع كالاجدل في انصابه او كالحريق في هشيم غاية[15]15)

من خلال اطلاعنا على الشعر الطردي لأبي نواس نراه حافلا بالعاطفة فعلى الرغم من اهتمام كبير بوسيلة الصيد لكنه لم يهمل الطريدة بل أضفى عليها بعض العواطف الإنسانية عن طريق وصفه للكلب الذي يستخدمه في الصيد والطرد حيث يذكر الظروف القاسية التي تكتنف الثور، فالليل شديد الظلمة، والصبح لم يأت بعد،واليوم ممطر وهو يطوي ليلا طويلا، ومما قاس من رياح ،وما أفزعه من برق ورعد:

قد اغتدى والليل في ادهامه لم يحسر الصبح دجى ظلامه
بساهم يمرح في أدامه مزبرج المتن وفي خدامه
مثل بديع العصب في إحكامه كأن خطر جانبي لثامه
بعد يوم الدجن من أيامه فصار والمغرور في اهدامه
قبل انتباه الحرّ من منامه ابن فلاه ظل من آرامه
ثم انتحى في سفر حمامه لناشطٍ يدفع عن أفلامه
فظل يغرى ملتقى اخصامه من خلفه طوراً ومن امامه[16]16)

يسيطر الحزن على أبي نؤاس عندما تلسع تلك الحية القاسية كلبه الذي يخرج معه إلى الصيد فرثاه في هذه الأبيات التي تقول:

يا بؤس كلبي سيد الكلاب قد كان أغناني عن العقاب
وكان قد أجزى عند القصاب وعن شراء الجلب الجلاب
يا عين جودي لي على كلاب من للظباء والعفر والذئاب ؟
وكل صقر طالع وشاب يختطف القطان في الروابي
كالبرق بين النجم والسحاب كم من غزالٍ لاحق الأقرب[17]17)

حيث أغناه عن العقاب الذي كان يستخدمه في الصيد وكان من كثرة صيده وهو يستفهم من يتصدى للظباء والذئاب بعد هذا الكلب النجيب.
وتنهال عواطف أبي نؤاس على كلبه فينعته من خلال ذكر بعض الصفات التي كان يتحلى بها، حيث كان هذا الكلب يعيش أصحابه من كده وتعبه، اذ يقول:

انعت كلباً أهله من كده قد سعدت جدودهم بجده[18]18)

---

[14] .ديوانه: صـ661 (13)
[15] . ديوانه:657 (14)
[16] .ديوانه :658 (15)
[17] . ديوانه: صـ636 (16)
[18] . ديوانه: صـ643 (17)

وان كل الخير الذي يوجد لدى أصحابه هو من عنده،وان صاحبه القريب له له يكون بمنزلة عبده المطيع له لكثرة أفضاله عليه، اذ يقول:

وكل خير عندهم من عنده يظل مولاه له كعبده[19]17)

ولكثرة تعاطف هذا الكلب مع أصحابه حتى انه أذا تعرى غطاه صاحبه ببرده لحبه له، اذ يقول:

يبيت أدنى صاحب من مهده وان عرى جلله ببرده[20]18)

وتنهمر عاطفة أبي نؤاس على كلبه الذي يدعوه إلى الصيد، حيث يعدد بعض من صفاته التي امتاز بها عن بيئة الكلاب، وكأنه الكلب الوحيد في العالم الذي تميز بهذه الصفات، اذ يقول :

لما تجلى الليل وابيض الأفق وإنجاب ستر الليل عن وجه الطرق
باكرني سهل المحيا والخلق كذب اذا اشتد به سهم لبق
يدعو إلى الصيد الا قلت انطلق يا كلب غضف صحيحات الحدق

لو يلصق الخد بأذن لا لتصق[21]19)

وفي طردية أخرى لأبي نواس نراه يتعاطف مع اليؤيؤ الذي يخرج به إلى الصيد مبكرا بحيث لا يزال الليل ناشرا ظلامه، ومن شدة تعاطفه معه انه جعل له أقارب، وعرق صالح ينتمي له، اذ يقول:

قد أغتدي والليل في مكتمه بيؤيؤ اسفح...يدعى باسمه
فقابل من خاله وعمه فأي عرق صالح لم ينمه[22]20)

((الخاتمـــــة))

عرض هذا البحث صور استخدام غرض الطرد في شعر أبي نواس ، أما سبب اختيار هذا الغرض عند الشاعر أبي نواس دون غيره من الأغراض لأنه غرض قديم عند العرب فقد مارسه أشرافهم وأغنياؤهم وفقراؤهم وكل من يلجا اليه فقد يكون للذة أو للقوت أو حماية النفس.فهو يمثل الخيال الفعال للشعر الطردي لأبي نواس فكان مستعينا بذاكرته التي احتفظ فيها صور ومشاهد عديدة. والطرد عنده يحمل صوراً أدبية جديدة كونها تحمل العاطفة الكبيرة ، ونلاحظ ذلك من خلال تعاطفه مع وسيلة الصيد التي كان يستخدمها. لذا رأينا أن دراسة هذا الغرض في شعره قد تضيف شيئاً إلى الجانب الوصفي في الشعر العربي حيث كان الوصف الطردي لأبي نواس مرتكز على وسيلة الصيد لكنه لم يهمل الطريدة إهمالا كبيرا بل وصفها ليبين قوة وجودة الوسيلة التي يستخدمها .وان صور استعمال وصف الطرديات عند الشاعر أبي نواس بدافع التقليد حيث امتازت اغلب طردياته بالوحدة الموضوعية وتفردت قصائده الطردية بوصف الصيد والطرد فقط وصور استعمالاتها ..

هوامش البحث

[19] . ديوانه: صـ624 (18)
[20] . ديوانه: صـ624 (17)
[21] . ديوانه: صـ624 (18)
[22] .ديوانه: صـ 638 (19)